

بين الثورة والاصلاح بقلم فريد أبو عيطة

الزمان المطلق والمكان الشامل ، الى زمانها الخاص ، ومكانها الخاص . زمانها الخاص هو زمان التآزم والتناقض ، هو مرحلة الثورة . ومكانها الخاص لا يكون الا الوطن الذي نبتت منه ، والشعب الذي استشعرها واحسس بها . فالثورة كي تتأرخ - كي توجد تاريخيا - ، كي تنتقل الى مستوى الحدث التاريخي وتساهم في صنع التاريخ ، لا مناص لها من التحقق في بقعة الوطن ، وفي جوانح الشعب . لكل ذلك ، وبناء عليه ، تتحقق « انسانية » الثورة « بديمومتها » زمنيا و « شمولها » مكانيا . وتتحقق ايضا « تاريخية » الثورة ، بأن لها مادتها الخاصة ، بن شعب معين ووطن معين ، لانها كي تتحقق و « توجد » ، لا مفر لها من ان ترضى بمصيرها ، وهو انها قومية مادتها شعب ووطن لهذا الشعب . وهذا التحقق القومي لا يكون الا انساني النزعة . هذه سنة الامور ، اما كيف تنحرف الثورة ، وكيف تتشوه القومية ، وكيف ، وكيف .. فكل ذلك راجع الى مدى اصالة وصدق الثورة .

✱

الحديث اعلاه موجه للكثيرين الذين يكتبون في « القومية العربية » . الذين لا يزالون يطرحون اسئلة مثل : ما هو الوطن العربي ؟ وما هي الامة العربية ؟ وما هو الشعب العربي ؟ .. الى غير ذلك من الاسئلة التي اصبحت تقليدية ، والتي تعبر الان عن مرحلة انتهت في تطور الثورة العربية الحديثة .

وهو موجه للذين يعتبرون مهمتهم مجرد الرد على الاعداء ، على الاخرين الذين يحملون اتجاهات تتنافى مع « القومية العربية » . وبذلك تكون ابحاثهم دحضا لآراء القوميين السوريين ، ودعاة « اللبانية » ، ودعاة الفرعونية ودعاة الطوائف الدينية ، وغيرهم ممن يكثرون في وطننا العربي .

وهو موجه ايضا للذين يقولون ان « مفهوم » القومية وجد في التاريخ في عصر كذا او عصر كذا ، وان القومية ظهرت بالشكل هذا او الشكل ذاك من الاشكال والصور .

وهو موجه اخيرا للذين « لا يزالون » يتساءلون عن مقومات واركاب القومية : ما هي ؟ وما اهم العوامل فيها ؟ اهو عامل اللغة ام الارض ام التاريخ ؟

الحديث موجه الى كل هؤلاء ، لان رجل الشارع العربي - بمجموعه ومنذ امد غير قصير - يعرف ما هو الوطن العربي ، ويعرف ما هي الامة العربية . . . ولان رجل الشارع العربي قد نبذ كل دعوة تخرج عن الوحدة القومية ، فعلميا وواقعا لا وجود لدعوة سورية قومية او دعوة فرعونية او دعوة طائفية ما دام الشعب في منجى من الانخداع بمثل هذه الترهات . اما دعاة هذه التشوهات المنحرفون ، خاصة المتصلبون منهم ، فقد يستمر ايمانهم بالخدعة امد طويل . ولا بأس في ذلك ، لان فعلاي دعوة ، في امة من الامة ، وتأثيرها في تاريخ تلك الامة ، انما يكون ، ويكون فقط بثقة يوليها الشعب لهذه الدعوة ، مما يساعدها على الانتشار ،

ان الثورة العربية الحديثة اهم واخطر ما على مواطنينا افرادا جماعات معالجته . وكل من يتحدث عن « القومية العربية » يسهم - حفزا او تعويقا - في معركة « الحياة » التي تخوضها الامة .

ان الثورة ارتداد الى الماضي وتفاعل مع الحاضر واطلال صوب المستقبل . فالثورة اذا ذات ديمومة ، اي انها مطلقة الزمان اصلا . هي ، كما « تنكش » نحو الماضي وتحتويه ، فانها تلقي بثقلها كله على المستقبل ، انها تفرغ كل ما تحتويه من شحنات ، وبذلك تحقق ذاتها ، وتعطي المرحلة التاريخية ملامحها ، وتصطلح موقتا مع نفسها . وهكذا فالثورة - عمقا زمنيا - تنبع من الازل وتنزع الى الابد ، فهي بهذا ، وبهذا وحده ، تحقق كل عمقها ، كل عنفها ، وبالتالي كل امكاناتها . هذا هو مداها الزماني ، وهذا هو مجالها الانساني .

الثورة عند تفتيشها عن « مذهبها » - لا افتعالا وانما معاناة - تقبس كل ما وصل اليه تطور الفلسفة والفكر العالمي في قمتها ، في المرحلة التاريخية الراهنة ، و « تطمح » للتنبؤ بالمستقبل باستكناه ما فيه والغوص الى اعماق اعماقه . هذا هو جوهر الثورة ، وهو انساني بطبيعته .

والثورة مطلقة ايضا في مجالها المكاني . فكما تكون منفتحة على التاريخ كله زمنيا ، كذلك تنفتح لكل المكان ، لكل المجتمعات الانسانية ، في كل المعمورة . الثورة عندما تعيد خلق مجتمع من المجتمعات ، تكون مادة تجربتها كل المجتمعات الانسانية . وهي عند التطبيق والتحقيق ، لا تحذو حذو اي من هذه المجتمعات ، ولا تكون خليطا من هذه المجتمعات مجتمعة . ما وطن هذه الثورة الا « الهوى » التي تكيفها الثورة و « تسويها » كما تشاء ، وتعطيها « الصورة » التي تحمل ملامح وقسمات الثورة . فالثورة كي تكون شاملة في المكان ، وكي لا تقع في الانعزال البارد ، « تغرف » من كل المجتمعات ، ولكنها لا تنسخ ايا منها ، ولا تلد خليطا من كل منها . انها تبدع صورتها وتخلق نفسها اصيلة نابعة من ارضها وشعبها ، والا ولدت سفاحا لعدم انتسابها لرحمها الحقيقي . بهذا ، وبهذا وحده ، تأخذ الثورة كل شمولها المكاني ، كل افقها وانطلاقها في الخارج .

الثورة اذا ، في جوهرها ، مطلقة الزمان والمكان ، فهي انسانية النزعة بطبيعتها ، ولا يمكن الا ان تكونها ، بمقدار ما تكون صادقة اصيلة ، غنية التفاعل والنمو .

الثورة وجوديا - عندما تبدأ في التحقق - تنتقل من

فالفعل في تاريخ الأمة . . اما وحكم الشعب وارد واكيد ، فلا تجوز الغفلة عن شعارات المرحلة واجترار اوضاع سالفه .

والحديث ايضا موجه الى هؤلاء ، لان كل بحث في القومية يبدأ بطرح السؤال : متى ظهرت القومية ؟ ويحاول محاكمتها بالانحرافات الطارئة ، وعلى ذلك يتساءل : هل القومية انسانية ؟ ام انها قد تكون عنصرية اعتدائية ؟ . . كل بحث بهذا المستوى ، لا يكون الا انحرافا ، لانه لم يع التجربة القومية شاملة كلية ، ولا يكون الا تعويقا للعجلة ، لانها مرحلة ماتت ، وعندما نقول « ماتت » نضع نصب اعيننا ان الثورة لها طليعتها ، وان مستوى الوعي يقاس بمستوى الطليعة ، ومستوى نضال الطليعة . . شرط ان تلتحم الطليعة والشعب بالثقة والايان المتبادلين .

وكذلك امر الذين يتساءلون عن اركان القومية وما اهم العوامل التي تفعل فيها ، اذ القومية تتخطى وتتجاوز كل الاركان وكل العوامل ، لانها وجود كامل يحوي كل شيء ولا شيء يفسره ، ويفر عن التحديد والتقييد .

*

كل هذا ، يعني ان مدرسة الاستاذ ساطع الحصري قد اتمت كلها وانتهت مهمتها ، رغم انها قد ساهمت في نشر الوعي للعروبة وتفنيده حجج خصومها . وقد اخرجت المطبعة العربية اخيرا كتابا بعنوان « في القومية العربية » للاستاذ عبداللطيف شراره . والبحث في مجموع الكتاب لم يع الثورة العربية كما هي ، وكما يجب ان تكون ، وكما بإمكانها ان تكون . . ولم يخرج عن عرض تقليدي لاسلوب الكثيرين الذين ورد ذكرهم ، والذين يطرحون تساؤلات قلنا انها قديمة ، وانها لا تساهم . في المرحلة الحاضرة . لا في انتقاد الثورة ولا في اعطائها اسلحتها الحقيقية .

وقد نشر الاستاذ شراره في الفترة الاخيرة عدة مقالات هاجم فيها الذين يدعون لحضارة عربية انسانية جديدة ، ويقولون ان هذه الحضارة لا بد لها من مساپرة تطور الفكر العالمي وما تدور في كنفه من معتقدات ومذاهب ومدارس فكرية ، لكي تأخذ الحضارة العربية الجديدة عمقها الزمني وافقها المكاني ، وبالتالي كي تكون لها هويتها وشخصيتها وانفتاحها الفني على التاريخ وعلى العالم . وكانت حجة الاستاذ في ابحائه السابقة ، وفي كتابه الاخير ، ان يترك الواقع العربي الفني المتطور ، في تلقائته وعفويته كي يحقق امكاناته في التحرر السياسي اولا ، ومن ثم تنبعث وحدها الفلسفة ، ان كان لا بد منها ، معبرة عن هذا الواقع . وقال الاستاذ اننا لا نستطيع ان نطلب فلسفة عربية كما نطلب الحلية انفعالا ببقية المجتمعات في العالم .

« اكبر الظن ان المقارنة بين العرب وغيرهم من الشعوب ، هي التي تهيب ببعض المفكرين الى (نشدان) فلسفة عربية خالصة في عروبته ، لتحل محل الفلسفات والنظريات

الحديثة الاخرى ، ونتقدم بها نحن العرب للعالم » - في القومية العربية ، ص ١١٦ .

ويقول الاستاذ عن عملية البحث عن فلسفة ، « انها صيبانية لانها لا تفكر جديا في العوامل التي تتكون وتتجمع وتتلور على مدى الزمن وتؤدي اخيرا بصورة عفوية طبيعية الى نشوء فلسفة . . . ولانها تفترض اخيرا ، في الفلسفة المشوذة) مقدره خاصة على تأييد حزب ، او مقاومة عقيدة ، او سحق جماعة ، وبذا تحكم بفكرة سابقة ، على هذه الفلسفة كيف تكون ، او كيف يجب ان تكون » - ص ١١٧

نرى هنا ، ان الخلاف يدور حول : كيف تنشأ فلسفة في مجتمع ؟ ويظهر ان الاستاذ شراره لم يتصور تماما ما يقصده القائلون بفلسفة عربية او مذهب عربي ينبع من صميم المجتمع العربي والثورة العربية ليعبر عن هويتها وشخصيتها وموقفها من المذاهب الاخرى في العالم . فهل يقصد بهذا الكلام ان نطلب الفلسفة طلبا ، ونحلي المجتمع العربي بحلية المذهب اعتباطا وانفعالا ببقية المجتمعات العالمية ؟ ام يعني هذا الكلام ، اننا في مستوى « العقل » افصحنا عن هذه الحاجة الملحة ، او عن هذا التأزم ، واننا في مستوى « الارادة » نريد هذا ، ونبحث عنه ، ونعمل من اجله ؟ اما الامة العربية ، وهي تعبر عن ذاتها ، وتحقق ثورتها وامكاناتها ، وتخلق مجتمعا وانسانيتها ، فانها مسؤولة دوما ، وفي كل حين ، امام نفسها وامام العالم والتاريخ عن صدق وواقعية وشمول تجربة الثورة التي تخوضها ، والتي هي لا ملك لها وحدها ، انما ملك للتاريخ ولكل البشر .

لهذا قد تأتي طليعة فتفصح وتعبر في مستوى العقل عن حاجة الامة لاتجاهها الخاص في التاريخ ، لفلسفتها ولمذاهبها ، ولكن هذا لا يعني ابدان الامة مطالبة بالاعتباط والضياع وتبني ما هب ودب من افكار ومذاهب . . ان عمق وشمول الثورة العربية ان تسالحتها بعمقها الزمني وافقها المكاني ، وان الوعي الكامل للثورة الذي يخلق تائريسن حقيقيين ، لهو وحده ، ووحده دوما ، المحك لصدق واصالة الثورة ، وبالتالي المحك لصدق واصالة ما تبعد من فلسفات ومذاهب وافكار .

ولا يمكن ان يفترض في فلسفة منشوذة مقدره خاصة على تأييد حزب ، او مقاومة عقيدة ، او سحق جماعة - كما يتخوف المؤلف - لانها عندها تكون تشوها سلبيا وانفعالا اعتباطيا ، وتكون لا موقفا انما انفعالا بموقف ، لا جربة انسانية انما عبودية لظرف خارجي طاريء . . . ولانها اخيرا لا تفترق عن اسلوب المعتقدات والافكار المصطنعة التي لفظها الشعب العربي . لكل هذا ، لا يمكن ان تكون عربية ، وتفقد كونها فلسفة حقيقية .

ولكن يظهر ان الاستاذ شراره لا يريد فقط ان تترك الامة في تلقائيتها الواقعية لتبديع الفلسفة التي تريد ، فهو يتوهم الامة بطابع ذهني ثابت واسلوب تفكير محدد ، ورد على

الاحداث هو هو على مدى الايام والعصور ... وهكذا يؤيد وجهة نظر من يقولون بروح خالدة ثابتة لهذا الشعب او ذاك . انه يفوص في الماضي ، وعليه يقيم الحاضر ، ويبنى للمستقبل ، « هذه الانسانية التي تغلف القومية العربية ككل .. تجعل للقومية العربية صفة فلسفية ضمنية، تصف بها الشخصية القومية للعرب عن غيروي فلسفي او بحث نظري، فالعرب ... » ، وهنا يستشهد بابن المقفع ثم يقول « كانوا ولا يزالون يفضلون الواقع على كل فلسفة ، وكل نظرية ، في ادراكهم للحقائق، وتصورهم للمستقبل » ص ١١٤ و ١١٥ .

هذا الكلام يعبر عن واقع عربي تاريخي ، ويميز العرب بانهم ذوو شخصية تتعامل مع النسيج الحي ، مع التجسد الواقعي الحيواني ، قبل اهتمامهم بمجال الافكار والنظريات والفلسفات المجردة الباردة الناقدة للدفاء والانسياب . لكن هذا لا يعني ابدا ان العرب غير مطالبين الان بالوعي الفكري والعقل المكتشف المتحكم ، ولا يعني ابدا عدم الخروج من سديمية الواقع المتخثر الى الوضوح والعقلية والتحكم الارادي في الخلق والابداع لحضارتهم الجديدة ولذهابهم الجديد .

ولكن يظهر ان ما يأتينا به الاستاذ اخيرا انما يفسر « عدم واقعيته » - رغم ايمانه بالواقع - ، ويلقي ضوءا على عدم الوضوح الكامل للثورة العربية في جوهرها الانساني ، وفي تجربة وجودها الشاملة . . ولهذا لم يعجبه الكلام عن النزوع لفلسفة المرحلة العربية .

« وحل المشكلة السياسية - وهي اعظم واشمل مشكلة - يسوق حتما الى التفكير في المشاكل الفرعية الاخرى ، وعليه يتوقف مصير الحضارة العربية ، ومن ثمة مصير الحضارة الانسانية برمتها » ص ١١٧ .

اذا يرى الاستاذ ان المشكلة السياسية هي ام المشاكل واساسها - وهائله كثيرون يرون هذا عن حسن نية - وهذا ادى الى اهتمامه بالتححر السياسي للعرب اولا ، على ان تأتي بعد ذلك المضامين الاخرى لحضارتهم ... وهذا ناشيء عن تصور جزئي جانبي للازمة العربية ، ينفي عنها كونها ازمة وجود شامل للحياة العربية كلها ، فالثورة العربية الحديثة ترفض الوجود العربي ، اي ترفض الواقع وتعالى عليه وتحداه ، وهي تطمح لخلق حياة جديدة ترضيها ، ولا ترجع او تعود للواقع الا عودة ظافرة تبدأ من الواقع لانه مادتها ولكنها تتخطاه ، لانها عند تحققها الوجودي لا بد لها من هذا الهيولي لتعيد تشكيل صورته .

ان الواقع العربي ، اهانة تتحدى كرامة العربي ، وسلاح العربي في رده الانساني ، انما هو (المروءة) التي تتخطى كل العوقات والعقبات والتي لا تقيم الانسان العربي بما هو كائن فحسب ، او بما كان فحسب ، وانما تقيم « حقيقته » ، بما يجب ان يكون ، وبما بإمكانه ان يكون .

الامة العربية مطالبة بالرد الايجابي الخلاق على تحديات العصر وتحديات وحشية الاستعمار والاستثمار والتمزق ، ولا يكفيها مطلقا ان نقول ان الكاتب الاجنبي الفلاني قال كذا

عن العرب - كما جاء في كتاب الاستاذ - ... من هنا نلتزم وتنبع مسؤوليتنا وينبع اسلوب محاكمتنا للامور ، حتى نستطيع ان نقول ان كل معالجة قومية لا تعي ثورية المحصلة الانقلاية التي تريد اختصار قرون من الضياع والالام ، ولا ترتفع الى مستوى الازمة العربية . . تفقد هدفها كحافز ومحرض للنضال .

*

وكل ما سبق في البحث ، انما يوضح ويبين الفرق الاكيد والخط الواضح الذي يفصل الثورة عن الاصلاح . فعندما نحاكم امر الثورة برأي الفرد العادي لا فرد الطبيعة ، وعندما نريد الثورة تلقائية عضوية ، وعندما نهمل واقعيته الشاملة ونعزلها عن تطور العالم . . وعندما نكتفي بالرد السلبي التقليدي على اعداء الثورة . . عند كل ذلك ، نجزيء الازمة العربية ، فنصورها سياسية ، ولا يمكن ان نكون بالتالي الا انصارا للاصلاح والتطور البطيء .

اما الازمة ازمة وجود شامل ، لا ازمة سياسية فحسب فالثورة قدرها ومصيرها ان تحمل العمق الزماني والافق المكاني ، ان تعانق الديمومة وان تنفخ كل الاجواء ... بهذا وحده « تتخلق » و « تنوجد » واقعا قوميا عربيا بتعاملها الفني الخلاق مع الواقع العربي الراهن .

فريد ابو عيطه

الكويت

الطبقات الكبرى لابن سعد

حمل الينا هذا الكتاب الكبير أضخم تراث اسلامي ولا يزال من اوثق المصادر التي يعتمد عليها رجال الحديث ومؤرخو الفقه وعلماء التاريخ، فهو موسوعة كاملة عن سيرة الرسول الاعظم والصحابة والتابعين حتى أيام المؤلف .

يصدر هذا الكتاب في زهاء ٣٢ جزءا (٨ مجلدات) ثمن الجزء ليرتان لبنانيتان بالاشتراك وعند اكتمال الطبعة قبل نهاية هذه السنة يصبح ثمن الجزء ٢٥٠ قرشا لبنانيا

صدر منه الاجزاء ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠

الناشر : دار صادر - دار بيروت